



من من لا يتشوق للانتصار؟!.. ومن من أبناء الثورة السورية لا يحن إلى نصر عزيزٍ كريمٍ من الله - عز وجل -؟!.. حين ينشط الثوار، فإنهم ينشطون بذاته الأمل بالنجاح والفوز والنصر.. لكن حين لا تحمل الأمانى الإحساس بثقل الواجب وما يحتاجه من تضحيات.. فإن بعض هؤلاء الأبناء تتحنى نفوسهم أو تنكس، تحت صدمة المعوقات التي تعرقل حركتهم ونشاطاتهم ومشروعهم الحق، فتقراخي وتيرة أعمالهم، أو يغادرون الصفوف قاطنين محبطين مُستسلمين لنتائج الامتحان الذي يمرّون به!.. وهل المعوقات قليلة في طريق الحرية والتحرير؟!..

لا شك أن الانخراط في أي مشروع للتغيير، عملية صعبة تقف بوجهها الكثير من العقبات، فضلاً عن معوقات العدو الذي يرفض الانصياع لدعوات الحرية والكرامة.. لكنَّ مشروعات التغيير وترسيخها ونشرها واستمرارها.. تحتاج إلى نوعٍ من الرجال ثقيل القيمة، عظيم الهمة، يحلو لهم الموت على طريق الحرية، ويعملون وفق هدفٍ واضحٍ وطريقٍ مرسومٍ بعناية، لتحقيق التحرر من ربة الاستبداد والعبودية لطغاة العصر، بعيداً عن الشعور بالعجز، وعن استبعاد النصر.. فالمخلصون الثابتون على الحق لا يشغلهم إلا تأدية رسالة، مع السعي لنيل رضا الله - عز وجل - في الدنيا والآخرة.

عندما يتهاوى ذوق النفوس الهشة الذين يضيقون ذرعاً بالصبر ويضيق الصبرُ بهم، لا يثبت في صفوف العاملين تحت لواء التحرير إلا ذوق العقيدة الصافية والنفوس المتنية الصلبة، الذين تُبنى على أكتافهم الأمم، وتُحمل على كواهلهم رفة الأوطان والشعوب.. فمثل هؤلاء يكون جهادهم وبذلهم أغلى عندهم من حياتهم، وتكون أهدافهم أثقل في نفوسهم من أرواحهم، ويكون مصير وطنهم وأمتهم وشعبهم شغفهم الشاغل!..

لقد أخبرنا القرآن العظيم في محكم آياته، أنه حين استيقظ الإيمان في نفوسبني إسرائيل، وانتفضت العقيدة في قلوبهم، واشتاقوا لقتال عدوهم.. طلبوا من نبيهم أن يجعل لهم ملكاً يقودهم لمواجهة أعدائهم في سبيل الله - عز وجل -، وذلك بعد أن ضاع ملوكهم، وذلوا لعدوهم الذي استباح أرواحهم وأبناءهم وأموالهم وأعراضهم، فذاقوا الويل وضاعت مقدّساتهم: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ..} (البقرة: من الآية 246).. لكنَّ

نبِّيِّهِمْ خَشِيَ أَلَا يَثْبِتُوا عَلَى هَذِهِ الْحَالِ الْإِيمَانِيَّةِ الْجَدِيدَةِ الْمُشَرِّقَةِ، فَسَأَلُوهُمْ: {.. قَالَ هَلْ عَسِيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَا تُقَاتِلُوا؟!..} (البقرة: من الآية 246).. فَأَجَابُوهُ بِالْحَجَةِ الْمُقْنَعَةِ وَبِشَكْلٍ قَاطِعٍ، بِأَنَّهُمْ سِيَقَاتُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِمَحْوِ الْعَارِ الَّذِي لَحِقَ بِهِمْ: {.. قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا؟!..} (البقرة: من الآية 246).. لَكِنْ بَعْدَ أَنْ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ فَأَصْبَحَ فِرْضًا عَلَيْهِمْ.. بَدَأُتْ صِفَوْهُمْ تَخْتَلِّ، فَنَقَضُوا مُعْظَمَهُمُ الْعَهْدِ، وَنَكَسُوا بِوَعْدِهِمْ: {.. فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلَيْمٌ بِالظَّالِمِينَ!..} (البقرة: من الآية 246).. فَتَسَاقَطَ الْكَثِيرُونَ مِنْهُمْ فِي أُولَى امْتِحَانٍ، بِمُجَرَّدِ تَلْبِيَّةِ طَلْبِهِمْ وَفِرْضِ الْجَهَادِ عَلَيْهِمْ، فَوَصَفُوهُمْ - سَبَّهُوهُمْ وَتَعَالَى - بِالظَّالِمِينَ، لَأَنَّهُمْ عَرَفُوا الْحَقَّ وَهَادُوا عَنْهُ، وَعَرَفُوا الْبَاطِلَ وَتَخَالَّوْا عَنْ مَوْاجِهَتِهِ، وَتَوَلَّوْا عَنْ طَرِيقِ الْجَهَادِ الَّذِي طَلَبُوهُ فِي سَاعَةِ (فُورَةِ)، فَظَلَّمُوهُمْ أَنفُسَهُمْ، وَخَذَلُوهُمْ نَبِّيِّهِمْ، وَخَانُوهُمْ طَرِيقَ الْحَقِّ الَّذِي تَخَلَّوْا عَنْهُ لِصَالِحِ الْبَاطِلِ!.. وَكَانَ هَذَا هُوَ التَّحْمِيقُ الْأُولُ لِصِفَوْهُمْ!..

ثُمَّ بَعَثَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَ - لَهُمْ مَلِكًا بَنَاءً عَلَى طَلْبِهِمْ - وَطَلَبُهُمْ نَبِّيِّهِمْ أَنْ يَطِيعُوهُ وَيَلْتَزِمُوا بِأَمْرِهِ وَيَقَاتِلُوا تَحْتَ لَوَائِهِ.. لَكُنْهُمْ تَقَاعِسُوا، وَاسْتَنْكِرُوا أَنْ يَكُونَ (طَالِوتَ) هُوَ الْمَلِكُ الْمُنْتَظَرُ، لَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ - حَسْبَ عَقْلِيَّتِهِمُ الْقَاسِرَةِ - أَنَّهُمْ أَحَقُّ مِنْهُ بِالْمُلْكِ، فَهُوَ لَيْسَ مِنْ سَلَالَةِ الْمُلُوكِ الَّذِينَ يَدِينُونَ لَهُمْ بِالْوَرَاثَةِ، وَكَذَلِكَ لَيْسَ مِنْ أَصْحَابِ الْمَالِ وَالْجَاهِ، لَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنْفُسَهُمْ أَكْثَرَ مَالًا وَأَعْرَضُ جَاهًا.. فَلَمْ يَقْبِلُوهُ بِهِ: {وَقَالَ لَهُمْ نَبِّيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالِوتَ مَلِكًا قَاتَلُوا أَنَّهُ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ!..} (البقرة: من الآية 247).. فَبَيْنَ لَهُمْ نَبِّيِّهِمْ أَنَّ اللَّهَ - سَبَّهُوهُمْ وَتَعَالَى - قَدْ اصْطَفَى (طَالِوتَ) عَلَيْهِمْ، لَامْتَلَكَهُ مَيْزَاتٌ أَهْلَتَهُ أَنْ يَكُونَ مَلِكًا مُنْفَذًا لَهُمْ، سِيَّنَقْذِهِمْ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الذُّلِّ وَالضَّيْاعِ، فَقَدْ مَنَّهُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَ - قَوَّةً فِي الْجَسْمِ، وَسَعَةً فِي الْعِلْمِ وَالْعُقْلِ، وَهُمَا الْأَمْرَانِ الْأَسَاسِيَّيَّنِ الْمُضْرُورِيَّانِ لِأَيِّ زَعِيمٍ أَوْ قَائِدٍ يَرِيدُ أَنْ يَوْجَهَ عَدُوًّا ظَالِلًا وَبَاطِلًا عَاتِيًّا، ثُمَّ ذَكَرُوهُمْ بِأَنَّهُمْ مُشَيَّثَةُ اللَّهِ وَإِرَادَتِهِ أَوْلًا وَآخَرًا: {.. قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْمٌ} (البقرة: من الآية 247).. وَأَخْبَرُوهُمْ نَبِّيِّهِمْ كَذَلِكَ - بَعْدَ جَدَالٍ طَوِيلٍ - بِأَنَّ الدَّلِيلَ عَلَى صَحَّةِ تَكْلِيفِ طَالِوتِ مَلِكًا عَلَيْهِمْ، هُوَ وَقْوَعُ مَعْجِزَةِ خَارِقَةٍ تَهْزِيْزُ قُلُوبِهِمْ، هِيَ إِحْسَارُ الْمَلَائِكَةِ لِلتَّابُوتِ الَّذِي يَحْفَظُونَ فِيهِ مُخْلَفَاتِ أَنْبِيَائِهِمْ مِنْ آلِ مُوسَى وَآلِ هَارُونَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ -، وَهُوَ التَّابُوتُ الَّذِي سَلَّيْهُ مِنْهُمْ أَعْدَاؤُهُمُ الَّذِينَ شَرَّدُوهُمْ مِنَ الْأَرْضِ الْمَقْدِسَةِ: {وَقَالَ لَهُمْ نَبِّيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَيَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} (البقرة: 248).. وَعِنْدَمَا وَقَعَتْ هَذِهِ الْمَعْجِزَةُ الْخَارِقَةُ، رَضِيَ الْقَوْمُ مُرْغَمِينَ، بِأَنَّ يَمْتَلَّوْا لَأْمَرِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَ -، وَبِأَنَّ يَكُونَ (طَالِوتَ) مَلِكًا عَلَيْهِمْ!..

بَعْدَ أَنْ أَعْدَدَ الْمَلِكُ (طَالِوتَ) الْجَيْشَ لِلْجَهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، سَارَ بِهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ أَسَاسَ النَّجَاحِ فِي الْحَرْبِ هُوَ الْطَّاعَةُ، لَاسِيمًا الْطَّاعَةُ عَلَى إِهْدَارِ الشَّهَوَاتِ فِي سَبِيلِ تَحْقِيقِ أَمْرِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَ -، وَرَغْبَ (طَالِوتَ) أَنْ يَخْتِرَ ذَلِكَ فِيهِمْ، فَقَالَ لَهُمْ بَعْدَ سِيرٍ طَوِيلٍ شَاقٍ: نَحْنُ مُقْبِلُونَ عَلَى نَهْرٍ، فَلَا تَشْرِبُوا مِنْهُ إِلَّا بِمَقْدَارِ مَا يَمْلأُ الْكَفَ، أَيْ يَشْرِبُ كُلُّ مِنْهُمْ قَلِيلًا مِنَ الْمَاءِ فَحَسِبُ.. لَكِنَّ مُعْظَمَهُمْ شَرِبُوا مَا يَحْلُو لَهُمْ، وَلَوْ أَسْتَطَعُوا ابْتِلَاعَ النَّهْرِ كُلَّهُ لَمَا قَصَرُوا!!.. عَاصِينَ بِذَلِكَ أَوْامِرَ مَلِكِهِمْ وَقَائِدِهِمْ (طَالِوتَ): {فَلَمَّا فَصَلَ طَالِوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِكُمْ بِنَهْرٍ فَمَنْ شَرَبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ!..} (البقرة: من الآية 249).. فَأَصْدَرَ الْمَلِكُ الْقَائِدَ (طَالِوتَ) أَوْامِرَهُ، أَوْجَبَ بِهَا مَغَارِبَةَ الْجَيْشِ عَلَى كُلِّ مَنْ شَرَبَ زِيَادَةً عَمَّا سَمِحَ لَهُ بِهِ، لَأَنَّ مَنْ لَمْ يَلْتَزِمْ بِالْعِلْمَاتِ فَقَدْ أَخْفَقَ فِي امْتِحَانِ الْطَّاعَةِ لِقَائِدِ الْجَيْشِ.. وَكَانَ هَذَا هُوَ التَّحْمِيقُ الثَّانِي لِلصَّفَ!..

وَعِنْدَمَا سَارَ (طَالِوتَ) بِمَنْ يَقِيِّ مِنَ الْجَيْشِ، فَزَعَ بَعْضُهُمْ مِنْ ضَخَامَةِ جَيْشِ الْعَدُوِّ (جَالِوتَ)، وَخَافُوا عَلَى دِنَاهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، لَأَنَّهُمْ يَرِيدُونَ نَصْرًا هِيَّا لِيَنَا سَهَلًا، وَقَالُوا: لَا قَدْرَةٌ لَنَا عَلَى مَوْاجِهَةِ هَذَا الْجَيْشِ الْعَرْمَمِ، فَلَنَعْدِ إِلَى حِلْيَتِ كَنَا، فَهُؤُلَاءِ قَوْمٌ كَثِيرُونَ أَقْوَيَاءِ، وَنَحْنُ قَلِيلُونَ ضَعَفَاءِ!.. لَكِنَّ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ مِنْهُمْ رَفَضُوا هَذِهِ التَّخَالِلَ وَهَذِهِ الْمَنْطَقَ فِي مَحَاكِمَةِ الْأَمْرَ، فَأَعْلَنُوا رَفْضَهُمْ مَغَارِبَةَ الْجَيْشِ أَوْ التَّخْلِيِّ عَنْ مَوْاجِهَةِ الْعَدُوِّ، حَتَّى النَّصْرُ أَوِ الشَّهَادَةُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، لَأَنَّهُمْ

كانوا يقيسون الأمور بمقاييس آخر، مقياس المؤمن الذي يعرف بيقينٍ أن النصر من عند الله - عز وجل - وحده، يمنحه من يشاء من عباده الصادقين المؤمنين الثابتين على الحق، الذين لا تهزمهم كثرة العدو ولا وطأة مؤامراته، ولا القوى التي تسنده وتدعنه، ولا الخذلان الذي يواجههم به من حوالهم: {.. فَلَمَّا جَاءَهُمْ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَنَا الْيَوْمَ بِجَاهُولَتِهِ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كُمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٌ غَلَبَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً بِإِنَّ اللَّهَ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} (البقرة: من الآية 249).

وهكذا، غادر الصفَّ فوق آخر من المواربين المتخاذلين، ولم يبقَ إِلَّا الصابرون المؤمنون المجاهدون في سبيل الله حق **جهاده**، الذين يستمدون القوَّة من الله - عز وجل - وحده، لأنهم يعلمون أنَّ ميزان القوى ليس في أيدي الأعداء أو أحدٍ من البشر، وإنما بيده - سبحانه وتعالى - وحده، فطلبوا النصر من اليد التي تملكه وليس من الأيدي المزيفة الواهمة التي لا تملكه!.. فكان ذلك هو التمييظ الثالث للصفَّ والجيش.

لم يبقَ في الصفَّ أو الجيش إِلَّا الفتَّة القليلة المُمَكَّنة الواثقة المؤمنة الصابرة، الثابتة على الحق على الرغم من كل ما أحاط بها من إِرْجافٍ وعوامل إِحباط.. هذه الفتَّة التي لم تزلزلها كثرة العدو ولا قوَّته، هي التي توجَّهت إلى الله - عز وجل - ، خالقها وربها ومدبر أمرها وأمر كل شيء في هذا الكون، طالبةً منه النصر والفوز والدعم والتأييد: {وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَاهُولَتِهِ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرَغْ عَلَيْنَا صَبَرًا وَثَبَتْ أَقْدَامَنَا وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} (البقرة: 250).. إنها الفتَّة الربانية التي قرَّرت - بِإِنَّ اللَّهِ - مصير المعركة الفاصلة، بموازين السماء لا بموازين الأرض، بعد أن أعدَّت ما تستطيع من عَدَّةٍ وعتاد: {فَهَزَمُوهُمْ بِإِنَّ اللَّهِ..} (البقرة: من الآية 251).. فكانت نهاية الملك الجبار المُرْعِب الظالم (جالوت) الذي أفرَع أقواء الرجال وأشداءهم.. كانت على يد الفتى الصغير (داود) - بِإِنَّ اللَّهِ: {.. وَقَتَلَ دَاؤُدْ جَاهُولَتَ وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بِعَضَهُمْ بِعَضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} (البقرة: من الآية 251).

بذلك، فقد شاءت إِرادة الله - سبحانه وتعالى -، أن يُعلَمَ الفتَّة المؤمنة، في كل زمانٍ ومكان، أنَّ الجبارية الذين يُرهبون الناسَ ويستبدُّون بهم ويقمعونهم، هم أضعف الناس عندما يشاء الله - عز وجل - أن يقهِّرهم، على أيدي الفتَّة المؤمنة الظاهرة، وليس من الاستثناء أن يقهِّر الله أعظم الجبارين على يدي فتى صغيرٍ طريٍ العود!..

الفتَّة المؤمنة القليلة التي صمدت، وحدَّ ثباتُها على الحق نتيجة الصراع مع الظلمة الجبارين.. هذه الفتَّة الظاهرة الملتزمة بمنهج الله - عز وجل -، استجلبت مَنْحَ بني إِسْرَائِيل - ببركة جهادها - مُلْكًا عظيمًا، بدأه (داود) - عليه السلام - الذي ورث مُلْكَ (جالوت)، ثم ورثه ابنه (سليمان) - عليه السلام -، وكان عهدهما هو العهد الذهبي لبني إِسْرَائِيل، فيه نُفَذَ شرع الله - سبحانه وتعالى - و منهجه العظيم، وفيه قام لهم مُلْكًا عظيم، وكل ذلك تم تأسيسه على ثمرات جهاد ذلك الصفَّ المؤمن النقيِّ المجاهد الممَّحَص، الذي هزم جالوتَ وجندوه.. وإنها منحة منه - سبحانه وتعالى - لم يكونوا يحلمون بها، وقد كانت نتيجةً من نتائج استيقاظ العقيدة في قلوبهم ونفوسهم، بعد ضلالٍ استمرَّ السنين الطويلة!..

لم تكن نتيجة الصراع بين قوم طالوتِ وقوم جالوتِ حدثًا تارِيخيًّا عابرًا، وإنما هي سنة من سنن الله - عز وجل - في أرضه.. وقد بدأنا حديثنا هذا بقول العزيز الحكيم: {.. قَالُوا: لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَاهُولَتَ وَجُنُودِهِ..}.. لكنَّ الصادقين الثابتين على الحق أبداً، على الرغم من المتساقطين والخاذلين والمتخاذلين والمتواطئين والمتآمرين.. كان لهم رأي آخر، أثمر نصراً عَزِيزًا وَمُلْكًا عظيمًا واستخلافاً في الأرض: {فَهَزَمُوهُمْ بِإِنَّ اللَّهِ..} (البقرة: من الآية 251).. فهل نتعلَّم ونتدبر يا أبناء الثورة السورية المبارَكة، المنتصرة بِإِنَّ اللَّهِ الذي لا ناصر سواه؟!..

